كلية العلوم الانسانية و العلوم الاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
المجلس العلمي

المحاضرة الثالثة (03)

الصنائع والحرف في الجزائر العثمانية: نماذج وخصائص.

عناصر المحاضرة:

- تمهيد
- أهم الصناعات
- التنظيم الحرفي
- خصائص القطاع المهني والحرفي.
- المعيقات والمشاكل
- خاتمة

تقديم:

عرفت الجزائر العثمانية نشاطا حرفيا وصناعيا شمل أغلب المدن وأغلب المهن التقليدية والحرف اليدوية، حتى أن هناك من حكم عليها أنها بدائية خاصة من الاوروبيين وذلك بالرغم من وجود الإحصائيات الخاصة بالحرف والتي كانت منتشرة في المدن الجزائرية كقسنطينة التي يبلغ عدد الحرف بها ما يناهز العشرين حرفة، والجزائر ما يقارب الأربعين وتلمسان ما يقارب الخمس مائة حرفة لصناعة النسيج والجلد والحديد والرصاص والرخام.

1- **أهم الصناعات:** تمثلت في:

أ. **صناعة السفن:** يمكن اعتبارها على أنها كانت صناعة رائجة نظرا لتشجيع السلطة القائمة لنشاط البحرية الجزائرية وتطور عمليات الجهاد وكثرة الحملات ووفرة المادة الخشبية؛ فقد كانت أغلب المراسي تتوفر على ترسانات مجهزة لصنع السفن والقوارب، وتصليحها وإعادة هيكلتها... وكانت الجزائر تولي اهمية لصناعة الخشب للسفن لكنها بحاجة إلى اسطول لمواجهة الاخطار الخارجية، لهذا كانت جل معاهداتها مع الدول الأوربية الشمالية تنص على أن يكون جزء من أتاواتها من مادة الخشب[1].

وأهم المراسي: الجزائر، شرشال، عنابة، جيجل، وأهم أنواعها الفرقاطات، واختص ميناء الجزائر بالسفن المستديرة القادرة على الإبحار.

إلا أن هذا النوع من الصناعة عرف تراجعا بتراجع الأسطول وتناقص المادة الخشبية واحتكارها وانصراف اليد العاملة المؤهلة إضافة إلى تراجع مرتبات رياس البحر وانقطاع التجهيزات البحرية التي كانت تستورد من الدول الإسكندنافية. وما لبث أن ضعفت لاستعمالها اليد العاملة الأجنبية من الأسرى وإشراف الفنيين الأجانب عليها، كما سبقت الإشارة إلى ذلك وزادت نسبة الواردات من المواد الأولية وعدم استغلال المواد المتوفرة في البلاد كالحديد والزنك والأخشاب[2].

---

[1]- عمارة عمورة، المرجع السابق، ص 188 .
[2]- ناصر سعيدوني ، المرجع السابق ،ص 66 .

ب. **صناعة الأسلحة:** تتمثل في صنع البنادق وتحضير البارود وسبك المدافع التي كانت تحضر في المدن الكبرى في قسنطينة، قلعة بني راشد، وقلعة بني عباس، وقد وجد بمدينة الجزائر مصنعان لتحضير البارود خارج باب الواد يعمل به 20عاملا، واختص المصنع الآخر في صنع المدافع وتشكيل القنابل ... وهي من أهم المراكز التي حافظت العائلات الأندلسية والتركية بها على هذا النوع من الصناعة، إضافة إلى القرى الصحراوية كبُوسعادة، وادي ميزاب، تقرت أما مراكز تحضير البارود فهي القبائل، زواوة، جرجرة.[1]

ج. **الصناعة التحويلية:** تشمل صناعة الحلي خاصة الفضية مثل الخواتم والخلاخل والأسورة والأقراط، ثم صناعة الفخار والطين للأغراض المنزلية والمعيشية وتحضير مواد البناء وتذويب المعادن كالفضة والحدادة والتلحيم لصناعة السكاكين والفؤوس والدروع والاقفال والألجمة...

كما تم استخراج الملح وسك العملة وصناعة الأدوات الخشبية والاثاث كالمعالق والمحراث والصناديق والطاولات والاقفال والمكانس والابواب[2]، إضافة إلى صناعة الأرحية والمعاصير لطحن الحبوب وعصر الزيتون، وصناعة أدوات نسيج الحلفاء والقصب لإنتاج الحمائر والسجادات والقفف والزنابل والأطباق والحبال والمكنسات والسلل والاقفاص والأطباق، إضافة إلى صناعة المستحضرات ومواد الزينة مثل الكحل.

انتشرت بتلمسان وأريافها ومازونة، شرشال، ميلة، وندرومة، ويرجع هذا التنوع بين المدن وأرياف المناطق الجبلية إلى وفرة المادة الأولية وأفران الآجر والجبس ومقالع الحجارة والزليج والفحوم من الأخشاب[3] لاستغلالها في الحدادة وتذويب المعادن والتدفئة.

د. **الصناعة الغذائية:** توفرت الجزائر على أفران الخبز ومطاحن الدقيق ومعاصر زيت الزيتون وتصبير الفواكه، ويلاحظ أن أغلب المطاحن المائية والهوائية التي تنتشر في المدن أغلبها ملكا للبايلك، فقد توفرت مدينة قسنطينة لوحدها على حوالي 18 فرن لطهي الخبز، و22 طاحونة مائية، والأمر نفسه ينطبق على مدينتي تلمسان والجزائر.

أما صناعة تجفيف الفواكه وتحضير المعجون وتقطير ماء الورد اختصت بها العائلات الأندلسية في تلمسان، قليعة، البليدة وبالنسبة لمعصرات الزيت انتشرت في جرجرة، الوادي، الصومام بينما اختصت المناطق الجبلية تلمسان، قلعة بني راشد بصناعة الصابون.

هـ. **صناعة النسيج:** تعتبر من أهم الصناعات المحلية، التي تعتمد في نشاطها على إرضاء متطلبات أسواق المدن، والأرياف، واكتست الصناعة النسيجية أهمية كبيرة في حياة المجتمع الجزائري، بمختلف أنواعها، ذلك أنها لم تكن حكرًا على جماعة أو منطقة معينة بل كانت تمارس في مختلف أنحاء البلاد.

وقد تطورت على يد الأندلسيين، حيث توارث الأساليب الفنية لصناعة الأقمشة والحرير والشاشية والبرانس والمخمل ومن أهم المراكز ندرومة، مازونة، مستغانم، شرشال، المدية، برشك[4] ، إذا كان الحرير مستورد من

---

[1]- يحيى بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 526 .
[2]- المرجع نفسه ،ص 522.
[3]- ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ...، ص 35
[4]-مدينة ساحلية بين تنس وشرشال حاليا قرية بورايا.

الأناضول فإن الصوف منتوج محلي كان يستخدم في صناعة الأغطية والجلاليب واشتهرت به مدينة معسكر وقسنطينة، إضافة إلى البرانس في الأطلس الصحراوي واشتهرت الزرابي في جبال النمامشة وجبال عمور.

كانت القبائل الرعوية تصنع المنسوجات الصوفية، والخيام، والحياك، والزرابي، حيث إشتهرت قبيلة آيت عباس بخياطة البرانس، ولهم دكاكينهم في الجزائر العاصمة. أما قسنطينة فعرفت بصناعة أجود الحياك، ووجدت في مدينة الجزائر والبليدة ورشات مختلفة لصناعة الشاشيات مثل مدينة مستغانم التي اشتهرت بصناعة الشاشية الأندلسية[1] حتى أن هناك من يرى أنها كانت أقل جودة من شاشيات تونس[2].

كما عرفت صناعة الأحزمة الصوفية والحريرية والمناديل، والشالات حتى كانت المنتوجات الحريرية تصدر إلى دول المشرق وأوروبا. واشتهر سكان مدينة دلس بتحضير مادة الصباغة المستعملة، لتلوين الصوف والأقمشة[3]. وبالتالي تخصصت بعض المدن والعائلات في نسج المناديل والقطيفة، لكن هذا النوع تعرض للتراجع والمشاكل نتيجة عدة عوامل: تراجع الأسعار، كثرة الضرائب، المنافسة الأجنبية.

ومن الصناعات المكملة للصناعة النسيجية صناعة الجلود التي شملت صناعة المحافظ، والأحذية ولوازم الخيول كالسروج، والألجمة والتي عرفت رواجًا واسعاً لدى بعض القبائل، حيث أولت إهتمامًا كبيرًا بتربية الخيول، فهناك قبائل تملك ثلاثمائة أو أربعمائة خيل[4]. إضافة إلى الدباغة التي تستقطب يد عاملة هامة حتى عرفت تلمسان بصناعة الأحزمة الحمراء[5]، وكان يوجد حوالي 33 مصنع لدباغة الجلود، بمدينة قسنطينة لوحدها و167 معملاً للأحذية[6] كما ظلت صناعة الشاشية وأعمال الطرز من إختصاص العائلات الأندلسية.

انتشرت بالجزائر ومدنها عدة محلات مخصصة للخياطة معظمهم ملكا اليهود وحتى الذي كان من اختصاص الكراغلة والعرب، أما عن المجتمع الريفي فقد كان ينسج ملابسه وأفرشته وأغطيته.

2-التنظيم الحرفي:

وصفت الحرف والصنائع بالتنوع والإتقان والتنظيم، بحيث كانت موزعة على النقابات المهن (الأمناء) فنجد في كل مدينة عشرات الحرف ويترأس كل حرفة أمينا ومن أهم هذه المراكز تلمسان، قسنطينة، الجزائر...

يوجد في مدينة الجزائر حوالي 40 مهنة على رأس كل مهنة أمينا فنجد أمين الخياطين، أمين العطارين، الشاشية، الصباغين، النجارين، البنائين...إلخ كما كانت كل مهنة تختص بشارع أو سوق حتى أنه ينتسب إليها مثلا: سوق الحديد، الفخارين، اللوح أو زنقة الرصاصين، درب الصباط، البلاغجية...

لقد كانت الحرف في الجزائر في العهد العثماني أكثر تنظيماً ، وهذا ما يتضح فيما يلي:

---

[1]- سعيدوني ، مظاهر التاثير ... ، ص 31.
[2]- صالح عباد، المرجع السابق، ص 137.
[3]- أر زقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعاليته...، مرجع سابق، ص 321.
[4]- نفسه ، ص 325.
[5]- ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي...، مرجع سابق، ص34
[6]- أرزقي شويتام ، المرجع السابق ،ص 324- عمار عمورة، موجز في تاريخ الجزائر، ط1، دار الريحانة، الجزائر،2002، ص106.

أ- **أمين الأمناء:** وجد هذا المنصب بمدينة الجزائر قبل القرن الثامن عشر[1] ، وكان يحضي بمنزلة خاصة حيث يقوم بدور كاتب الداي الخاص وتحت يده دفاتر قوانين البلد، والرسوم المسطرة على الحرف، وصنائع البلد. ومهمته تتمثل في مراقبة الأسواق، وما يتعلق بها من أوزان ومكاييل.

ب- الأمين: كان يتم تعينه من طرف الداي بالإتفاق مع كبار ممثلي الحرفة، له مهمة تمثيل الحرفة ومراقبة الإنتاج، وجمع الضرائب، له مساعدين مهمتهم الحرص على الأمن، والاستقرار داخل الحرفة، واتباع وتنفيذ كل أوامر الأمين[2]، و راتبه بتقاضيه نسبة من الضرائب التي يجمعها .

ج- شيخ البلد: يكون غالباً من أعيان الجزائر، وله مجلس يختاره يشمل أمناء الصنائع والحرف ويحدد معهم أسعار المواد الضرورية، حتى لا تقع العامة ضحية إحتكار التجار؛ وكان يتسلم من الأمناء الضرائب والرسوم ليودعها في الخزينة العامة كل شهرين؛ وبالتالي يمكن اعتباره أداة وصل بين النقابات الحرفية والطوائف العرقية من جهة، وبين سلطة الإيالة من جهة أخرى [3].

د-المحتسب: للمحتسب سلطات تسمح له بمراقبة كل مايُباع، في الأسواق من مأكل وملابس، ومصنوعات ومشروبات، وذلك عن طريق تحديد أسعار البضائع، والإشراف على سير أسواق المواد الغذائية، ومراقبة الدكاكين وبائعي الخضر والفواكه وأفران الخبز.

3-خصائص القطاع المهني والحرفي بالجزائر العثمانية:

عرفت الحرف الجزائرية خلال العهد العثماني وخاصة أواخره تقهقراً وتراجعا كبيرًا على عدة مستويات خاصة ما تعلق بمنتوجات الصناعية التقليدية، ويعود هذا التغيير إلى جملة من الظروف والعوامل أهمها:

-سيطرة الدولة الأوروبية على الأسواق الجزائرية بالمصنوعات الأوروبية التي تمتاز بالجودة والنوعية، ورخص الأسعار أو عن طريق الإغراءات بتقديم لرجال السلطة وموظفين هدايا مختلفة[4] .

-دخول المصنوعات المستوردة إلى الأسواق الجزائرية، مما أدى إلى ارتفاع أسعار المصنوعات الجزائرية، وذلك ما أدى إلى انتهاج الحكومة سياسة الحماية الجمركية على البضائع والمصنوعات أحيانا، أو تشجيع الإستيراد الخارجي من الدول المجاورة.

- تراجع القدرة الشرائية لدي الأهالي بسب إثقال كاهلهم بالقيود والضرائب المفروضة؛ ومن جهة أخرى كانت معظم الصناعات تحت إشراف خبراء فرنسيين وحتى إسبان(الصناعة الاستخراجية).

- سيطرة اليهود على الصناعات الدقيقة مثل الذهب والأحجار الكريمة.[5]

- نظام الطوائف الذي لم يقم بتحديد أو توسيع مجاله وغياب روح المبادرة في سبيل تطوير الصناعة، فبقيت هذه التنظيمات والنقابات حاجز اً أمام التطور الصناعي.[6]

---

[1] - عائشة غطاس، الحرف والحرفيون في مدينة الجزائر1700-1800، مقاربة اجتماعية - اقتصادية، ج1، أطروحة دكتوراه غير منشورة في التاريخ الحديث، (إشراف: د مولاي بالحميسي)، جامعة الجزائر،2001، ص 181.

[2]- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار، والمداخل، ج1، دار القصبة، الجزائر،2009، ص335.

[3]- حنيفي هلايلي، النشاط الاقتصادي...، مرجع سابق، ص251.

[4]- محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، مطبعة بن بولعيد، الجزائر،1975، ص126.

[5]- غالي الغربي وآخرون، العدوان الفرنسي على الجزائر خلفيات وأبعاد، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، الجزائر،2007، ص34.

[6]- بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر من (1830-1939)، ج1، دار المعرفة، الجزائر ،2006، ص25.

– اعتماد الحرف والصنائع الجزائرية على المواد الأولية المتوفرة كالأصواف والجلود؛ حيث خضعت الصناعة في المدن لتحكم ومراقبة الهيئات المهنية، الذين أشرفوا على أصول المهنة.

– اقتصار الصناعات الجزائرية على تلبية حاجات السكان المحلية، ومشاركة عدة فئات وجاليات في تطورها خاصة فئة الأندلسيين واليهود.

– توزيع هذه الصناعات على مدن متخصصة فمثلا اختصت مدينة الجزائر وشرشال وجيجل وعنابة في صناعة السفن واختصت بلاد القبال والجزائر وقسنطينة وقلعة بني راشد بالأسلحة والبارود وتلمسان ومستغانم وندرومة وبلاد القبائل بالصناعة التحويلية وصناعة الحلي ببلاد القبائل وبالاوراس.

– المحافظة على الطابع الوراثي وذلك بالاعتماد على الصناعات المحلية البسيطة في الأرياف، بينما الصناعة التقليدية في المدن، إذ اعتمدت في منتوجاتها على الأشياء الكمالية والترفيهية، مثل الأحزمة، والمناديل، والعطور. وفي المقابل اتصافها ببساطتها وخشونة أسلوبها خاصة صناعة الأرياف مثل الأدوات الفخارية والخشبية والأنسجة الصوفية.

– اضطرار الصناعة الجزائرية إلى رفع أسعار بضائعها، من أجل تسديد الضرائب المفروضة عليها، وبذلك انخفضت نسبة وقيمة المنتوجات الزراعية، بالنسبة للموارد المصنعة، وارتفع مستوي معيشة الحضر على حساب الفلاحين[1].

– حظي القطاع بتنظيم واهتمام مختلف المهن والمصانع التي كان لها دور فعال وبارز في دعم حركة النشاط الاقتصادي[2] ببروز مهن أدخلها الأندلسيون كالبناء أو أفراد الجيش كالحلاقة...

– تنوع وتعدد المهن المتعلقة بالحرف[3] حتى أن الحسن الوزان عد عدد الحوانيت والمهن المتعلقة بمدينة تلمسان. لكن بالرغم من هذا التنوع في النشاط الحرفي وتوزيعه على مختلف أقاليم الايالة إلا أنه افتقد لأفاق التطور والازدهار بحكم تعرضه لعوامل داخلية وأخرى خارجية أضرت بها.

– تناقص كميات إنتاجه وتراجعه خاصة مع نهاية الحكم العثماني وعدم مواكبة التحولات الدولية حينذاك والمتمثلة أساسا في الثورة الصناعية بأروبا، حتى أننا لا يمكننا نعتها بالصناعة وإنما هي حرف ومهن تقليدية.

– أزمات الكَسَاد وانخفاض الأسعار وازدياد المطالب المالية وانخفاض المردود والمنافسة الأجنبية وجهود النقابات وبالتالي حدث خلل في التنظيم إضافة إلى الاعتماد على العمال الأجانب في الصناعات الأساسية.

خلاصة: كانت الصناعة تستمد خاماتها الأولية في أساسها من الإنتاج الزراعي والحيواني، بحيث كلما تنوعت مواد الخام كلما تنوع الإنتاج الصناعي. وكانت مختلف الصناعات منتشرة في كل من المدينة والريف الذي ينتج مختلف الحاجات الضرورية بنفسه. كما لم تكن الحرف مقصورة فقط على الرجال، بل كان للنساء دورا كبيراً في إنتاج بعض المصنوعات. وبالموازاة عملت السلطة على تدهيم بعض الصناعات الأساسية المتعلقة بالأسطول والآلة الحربية.

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي...، ص36.

[2]- العربي سعيدي، الأسواق والحرف في مدينة الجزائر على ضوء المصادر المحلية 1520-1830، مذكرة ماجستير، جامعة سيدي بلعباس، 2007، ص 103.

[3]- صالح عباد، المرجع السابق، ص 339